

السؤال : هل اللاشعور فرضية علمية أم أنها تبقى مجرد افتراض فلسفى ؟

المقدمة : لقد كان لتطور الدراسات النفسية في العصر الحديث تأثير كبير في مجال علم النفس و ذلك من خلال الإقرار بأن هناك جانبًا كبيراً من الحياة النفسية لا يمكن ملاحظته بحيث أصبح تفسير سلوكيات الإنسان يتم برمدها إلى هذا الأخير و الذي أطلق عليه اللاشعور و هو مجموعة الأحوال النفسية الباطنية التي تأثر في سلوك الفرد و تفكيره و في مشاعره دون أن يشعر بها غير أن البحث في **قيمة اللاشعور** أثار جدلاً واسعاً بين المفكرين و الفلاسفة و علماء النفس إذ رفض البعض منهم فرضية اللاشعور الفرويدية كلياً باعتبار أنها لا تتوفر على شروط الفرض العلمي و أنها أقرب إلى التفكير الفلسفى بينما البعض الآخر أيدها و اعتبرها فرضية علمية و ضرورية لفهم ما لا نستطيع تفسيره شعورياً و في ظل هذا الجدل القائم يثار التساؤل التالي : هل ترقى فرضية اللاشعور إلى مستوى النظرية العلمية أم أنها لا تعدو أن تكون مجرد افتراض فلسفى لا أقل و لا أكثر ؟ و بعبارة أخرى : هل لفرضية اللاشعور قيمة علمية ؟ و هل يمكن تعديها و اعتبارها نظرية شاملة تفسر كل سلوكيات الإنسان ؟

العرض (محاولة حل المشكلة)

1 - عرض منطق الأطروحة : يرى رواد مدرسة التحليل النفسي و في مقدمتهم سigmوند فرويد بأن الحياة النفسية جوهرها اللاشعور فهو نظرية علمية و فكرة قائمة على أسس علمية

و يستند أنصار هذا الاتجاه في تبرير موقفهم على الحجج التالية :

الحججة الأولى : الذي يثبت علمية اللاشعور هو التجارب الإكلينيكية التي أثبتت وجود مكتبات هي المسؤولة عن الأمراض النفسية مثل الهستيريا الصراع و الإضطرابات النفسية فهناك علاقة سببية بين بعض الذكريات الآلية والأعراض العصبية و زوال هذه الأمراض يتم بانتقال هذه الذكريات إلى ساحة الوعي أو الشعور فقد أجرى **جوزيف بروير** في نهاية القرن التاسع عشر تجربة على فتاة مصابة بالهستيريا فلاحظ أنها كانت تتمتم في حالات الغيبة بكلمات بدا

أنها تتعلق بهموم شخصية حميمية فوضعها في حالة تنويم مغناطيسى و أعاد عليها تلك الكلمات فكررتها المريضة و كونت تخيلات تتسم بالكآبة و بعد ترديد عد منتها تحسنت و عادت إلى حالتها الطبيعية و اختفى التحسن في اليوم التالي ثم عاد فظهر بعد جلسة جديدة وواصل علاجه على هذا النحو حتى شفئت و لقد خلص بروير إلى أن المريضة لم تستطع أن تتبين الصلة بين أعراضها وبين خبرات حياتها و لكنها في حالة التنويم (اللاوعي) كشفت فورا عن الصلة المفقودة أي أن أعراضها كانت بمثابة ذكريات من موافق وجاذبية ماضية و عندما تتجز تلك المكتوبات في الخيال (اللاوعي) تزول تلك الأعراض و هو ما يفسر أن أعراض الهستيريا لا تعود لأسباب عضوية و إنما هي متولدة عن أسباب نفسية لا شعورية لا يعيها المريض

الحججة الثانية : كما أكدت تجارب التحليل النفسي العلاجية القائمة على أسلوب التداعي الحر و التي أجرتها فرويد على مرضاه أن الكبت هو علة اللاشعور و يحدث نتيجة تضارب رغبيتين فيتم إشباع إحداهما و ضد الأخرى و هو ظاهرة نفسية لا شعورية يحدث بسبب كبت المريض للأحداث المؤلمة الحزينة أو الرغبات المنبوذة اجتماعيا أو الحوادث التي تمس الكرامة و الشرف غير أن الكبت لا يعني اختفاء الميول المكتوبة نهانيا بل تبقى نشطة ديناميكيا و تظهر في مظاهر متعددة منها : **الأحلام** التي تعبر عن دوافع لا شعورية تزيد التحقق و لكنها مكتوبة في خبايا اللاشعور و كل حلم يحمل دلالة تشير إلى سبب لا شعوري فالاحلام حسب فرويد ليست تركيبا عشوائيا للصور بل هي فرصة مواتية تظهر من خلالها ميول الأفراد و رغباتهم المكتوبة و يلتمس اللاشعور أيضا من خلال **النسيان** فقد بينت مدرسة التحليل النفسي أن نسيان بعض الأسماء أو الكلمات أو الأشياء له دلالة و معنى فهو يرجع إلى دوافع و أسباب لا شعورية يولمنا تذكرها فنحاول قمعها و كبتها في اللاشعور فحين ينسى أحدهنا إسم بلد فلن نسيانه يعبر عن سبب لا شعوري في عدم الرغبة في تذكر ذلك الإسم لما له من ذكريات آلية مثل الكيان الصهيوني أو فرنسا مثلا و يظهر اللاشعور أيضا من خلال **الأغلاط اللاشعورية** و هي الأخطاء غير المقصودة التي يقع فيها الإنسان سهوا سواء بقلمه (زلات القلم) أو بلسانه (فلتات اللسان) و من الواقع الذي يرويها فرويد في هذا الصدد هو أنه حدث و أن حضر إلى جلسة قضائية في المحكمة فبدلا أن يقول رئيس المحكمة في البداية فتحت الجلسة فقال رفعت الجلسة فللت لسانه هذه على رغبة لا شعورية

مكبوةً و هي كراهة الحكم في تلك القضية المعروضة عليه في ذلك اليوم و يلتمس اللاشعور أيضاً من خلل **الحيل** و هي آليات دفاعية يتخذها الآتا للدفاع عن نفسه دون وعي و منها التعويض و مفاده أن وجود أي نقص في جانب من جوانب شخصية الإنسان يدفعه بطريقة لاوعية إلى اتخاذ سلوك بديل لتنطليه نفسه و من الحيل اللاشعورية نجد أيضاً التبرير و هي آلية دفاعية تجعل الإنسان يبرر أفعاله بردتها إلى أسباب أخرى أو ربطها بالآخرين فمثلاً الطالب الذي يفشل في الامتحان عندما يسأل عن سبب فشله يبرر ذلك بصعوبة الامتحان و عدم كفاءة أساتذته و لا يبرر ذلك بسبب كسله و من الحيل اللاشعورية نجد أيضاً الإعلاء أو التصعيد (التسامي) فمن خلاله يقوم الآتا بتحويل الميول العدائية و الرغبات الجنسية و السمو بها في شكل أعمال مقبولة إجتماعياً فالغرائز الجنسية في نظر فرويد تتحقق في أعمال سامية كالفن و الرياضة و الأدب ... الخ كما أن الميول العدائية تعبر عن نفسها في شكل سامي في أن تبرر مثلاً في النقد

فهذه المظاهر اللاشعورية (الأحلام ، النسيان ، الأغلاط اللاشعورية ، الحيل ، أخطاء الإدراك ، السخرية و النكت ، العواطف ، الفن ، تداعي الأفكار ... الخ) لا يمكن معرفتها بمنهج الاستبطان (التأمل الباطني) القائم على الشعور بل تستدل على وجودها من خلال أثارها على السلوك

الحجـة الثالثـة : كما أثبتت الطب النفسي أن الكثير من الأمراض و العقد و الإضطرابات النفسية يمكن علاجها بالرجوع إلى الخبرات و الأحداث (كالصدمات و الرغبات و الغرائز ... الخ) المكبوة في اللاشعور و هو الأمر الذي عمل على انتشار العيادات النفسية و بوتيرة أسرع في مختلف أنحاء العالم

الحجـة الرابـعة : كما أن منهج التحليل النفسي كشف للمربين عن مدى تأثير تجارب مرحلة الطفولة في سلوكيات البالغين (و هذا في حد ذاته إنجاز علمي و تربوي)

الحجـة الخامـسة : كما أصبحت الدراسات و النتائج التي استخلصها التحليل النفسي لقضايا اللاشعور تثير الكثير من الجوانب في سلوك المجرمين و المنحرفين و

المجانين و حتى الفاشلين حيث عززت هذه الدراسات الجانب الإنساني فأصبح عدد من المنحرفين يدخلون المستشفيات بعد أن كان يلقى بهم في السجون أو يضللون عرضة للسخرية لهذا يرى **محمد وقيدي** أن فرضية اللاشعور تساعدنا على إبقاء الضوء على حالات المرض النفسي أو حالات الإضطراب في مستوياتها المختلفة و ذلك في قوله : ((هي فرضية تساعدنا أيضاً على تفسير مظاهر السلوك

النقد : لكن و رغم ما قدمه أنصار هذا الاتجاه و على رأسهم فرويد لتبرير القول بعلمية اللاشعور إلا أنهم قد بالغوا في تبريرهم لقيمة فرضية اللاشعور الفرويدية إذ أن هذه الفرضية و رغم ما حققته تبقى بعيدة على أن تكون في مستوى النظرية العلمية فرغم القيمة العلمية لنتائج التحليل النفسي إلا أنه يبقى منها عياليا لا يمكنه أن يمدنا بنتائج يمكن تعديمها و تبقى مجرد تصور حاول فرويد تطبيقه على فئة معينة و هم فئة المرضى فقط لا الأصحاء كما أن ربط وجود اللاشعور بالغرائز وخاصة الليبido جعل من الفرد شبيها بالحيوان الذى تسيره غرائزه فقط لهذا لا يمكن رد الحياة النفسية للاشعور ولليبido و هذا ما جعلها لا ترقى إلى المستوى العلمي لأنه لا يمكن التحقق من صدقها دانما هذا ما أدى إلى ظهور اعترافات ضد التحليل النفسي الفرويدى خاصة و اللاشعور عامه

2 - عرض نقيض الأطروحة : و على خلاف الموقف الأول يرى بعض المختصين في علم النفس و على رأسهم تلاميذ فرويد (زعماء مدرسة التحليل النفسي الجديدة) أن فرضية اللاشعور ليست فكرة علمية بقدر ما هي مجرد إفتراض فلسفى حيث وضح كل من آدلر و يونغ و ستيكال و حتى سارتر أن منهج التحليل النفسي قد حفل بعده مبالغات تجعلنا نشك في الطبيعة العلمية لفرضية اللاشعور فهذا آدلر يوضح أن اللاشعور لا يعود إلى الليبido كما يعتقد فرويد بل يرجع إلى أحاسيس الفرد و شعوره بالقصور (نقص جسمى) لأن المصاص بقصور جسمى (عضوى) يسعى دانما إلى تعويض هذا النقص وتغطيته عن طريق الأعراض العصبية كما أن كل ما فسره فرويد بالكتب فسره آدلر بعقة القصور والتعويض أما كارل يونغ فقد بين هو كذلك أن اللاشعور لا يتأسس على اللاشعور فقط بل يضاف إليه الحاجة إلى السيطرة و أثبت أن اللاوعي ليس فردي بل هو جمعي لأنه مليء بالازمات التي عشناها أثناء طفولتنا و كذلك التي مرت بها الإنسانية جماعة و نفس الفكرة نجدها عند الطبيب النمساوي ستيكال الذين انكر فكرة اللاشعور الفرويدى إطلاقا حيث يقول في هذا الصدد : ((لا أؤمن باللاشعور لقد آمنت به في مرحلة الأولى لكنني بعد تجاريلى الذى دامت ثلاثة سنٍ وجدت أن كل الأفكار المكتوبة إنما هي تحت شعورية و أن المرضى يخافون دانما من رؤية الحقيقة))

ومعنى قول **ستيكال** هو أن الأشياء المكبوبة ليست في الواقع غامضة لدى المريض إطلاقاً إنه يشعر بها ولكنه يميل إلى تجاهلها خشية تطلعه على الحقيقة فاللاشعور إذن هو مجرد تجاهل للأفكار و الحقائق كما رفض الفيلسوف الفرنسي **جون بول سارتر** فكرة اللاشعور و اعتبر أن السلوك الإنساني يجري دائمًا في مجال الشعور وأن اللاشعور في نظره هو مجرد خداع وقد عبر عن هذا في نظريته (خداع النفس)

و لهذا فلا أساس علمي لهذه الفرضية غهي فكرة فلسفية لا أكثر و لا أقل **النقد :** إذا كان حقاً أن اللاشعور لا يعود إلى الطاقة الجنسية (الليبido) فهذا لا يعني أنه فكرة و نظرية فلسفية فكيف نفسر قدرته على فهم و تفسير نمو و تكون شخصية الإنسان فضلاً عن كشفه تقنية للعلاج النفسي و على هذا الأساس لا يمكننا أن نلغي ما أثبتته التجارب الإكلينيكية (العيادية) و حتى من الوجهة التفسيرية : فنظرية فرويد فتحت باب النظر العقلي إلى المشاكل الشخصية من خلال دراسة الحياة الجنسية كما أنها صنعت مناهج تحليلية بصورة معدلة قليلاً أو كثيراً عيادات إرشاد الأطفال و أن تهيئة التكيف الحسن في الحياة بالإضافة إلى أن مجهودات فرويد أحدثت ثورة في فهم الأمراض العصبية و علاجها وبالتالي ساعدت على توسيع فهم الحياة النفسية و اضطراباتها و مستوياتها المختلفة **التركيب :** اللاشعور هو ذلك المكان المظلم في الإنسان الذي تمكّن فرويد من اكتشافه فهو من ناحية يعتبر فرضية علمية مكن توظيفها من تفسير حياتنا النفسية كتفسير العديد من أنواع السلوكات الشاذة مثل السادية (التلذذ بآلام الغير) و من علاج كثير من الأمراض النفسية و من ناحية أخرى فهو فكرة فلسفية إذا ما ربطناه بالطاقة الجنسية الليبية التي اعتبرها فرويد محرك الإنسان

الخاتمة (حل المشكلة) : نستنتج في الأخير أن نظرية اللاشعور تظل بوجه خاص في سياق التحليل النفسي بمثابة اجتهاد أدى إلى اكتشافات مضيئة و هامة حول النفس البشرية و معالجة كثير من اختلالاتها على مستوى السلوك على الصعيد العيادي حيث تمكنت هذه النظرية من تفسير نمو و تكون شخصية الإنسان منذ طفولته من خلال تحديد علاقة هذا المفهوم بمفاهيم أخرى كالليبido و الكبت و لكنه اجتهاد مع ذلك أقرب إلى الإفتراض الفلسفي منه إلى النظرية العلمية